

حوار الشباب الجزائري التركي بين ثنائية الهوية الثقافية وجدلالية العولمة

د. بن حمادي عبد القادر

جامعة وهران -02- أحمد بن احمد

مقدمة

إن تقدير الظروف النفسية للشباب الجزائري التركي في زحام المتغير الثقافي، لا سيما حين تتحول بعض المتغيرات إلى مقاصد هدم الفكر أو المساس بالميكون الثقافي أو ضرب منظومة القيم العليا الراقية، على نحو ما تبثه وسائل الإعلام المتطورة والموجهة لأداء تلك المهام المشينة، لتتلاعب بغرائز الشباب وتطويعها. فالتلاعب بوجودان الشباب ودغدغة مشاعره وإبادة طاقته في زحام تيارات العبث والاندفاع إلى التحلل والتحرر القيمي، بما لا يتسق وطبائع قيمه وبثوابت دخيلة عن قيمه الأصلية الإسلامية العربية التركية.

إن وجوب صناعة حوار متجدد مع الشباب في كل من الجزائر وتركيا، ومن باب التعريف بماضيه العريق، قصد الاعتزاز دون مزادة أو التلويح بالشعارات أو الإتكاء على الماضي، بما قد يمهّد الانقطاع عن الحاضر وضرورة اللحاق بالثورات العلمية والتكنولوجية وتراكم المعرفة دون توقف، بات أمرا ضرورياً.

إن محاولة الوصول إلى عقول الشباب ووجدانه، ينبغي أن ينطلق من تربية النشء على أصول الانتماء ومنطق الاعتزاز برموز المواطنة، إنتقالاً من مراحل التعليم الأساسية بما تطرحه من أخلاقيات وقيم مغروسة سلفاً، عبر مناهج دراسية سليمة تثبت بتواصل مقنع تواجه به عولمة ثقافية، قد تصرفه حتى عن تعرف أصوله ومقومات تاريخه المجيد. ولن يتأت ذلك إلا

بأعلام الفكر وأقطاب الثقافة في الدولتين من خلال الإبداع والابتكار في شتى العلوم وهو ما يفتح أمام الشباب الجزائري التركي الأمل في إعادة بناء مستقبل علمي يحدد من خلاله تاريخ السلف الذي امتلك من العقل والنبوغ ما علم به الإنسانية كيف نتعامل مع الكون. فإلى أي مدى يمكن للشباب أن يملك لغة تتسق مع حماسة شغفه وتنطق بآماله لتعكس رؤاه وأفكاره وتطلعاته وتحكي أحلامه المستقبلية الواعدة ؟

الحوار العربي التركي بين المطلب الحضاري وفاعلية الإتصال:

إن مطلب التنمية والسلام هو مطلب حضاري راق، إذ لم يتحول إلى شعار براق ومفردات فضفاضة تحكي فصولا من الأمل والطموح تتجاوز حقيقة ما هو قائم على الأرض العربية والتركية بما يعيق التنمية البشرية والاجتماعية والاقتصادية والعملية والعلمية في ركاب عالم يتقدم كل يوم ويقفز قفزات متسارعة نحو ثورات العلم وبتأججه وتراكم المعرفة وتجدها ومواكب التطوير والتحديث التي لا تفوق البطء والتوقف.

ففي ظل الحصار الإنساني الكثيب نتعجب كمثقفين عرب وبدون استحياء، لا بل وكجزائريين أمام مشاهد تدعوا إلى التعجب وللسخرة من كل شيء: فهذا أستاذ جامعي جزائري عربي يلقي محاضرة قصيدتها الهوية العربية الإسلامية في جامعة جزائرية وجمهورها جزائري مسلم باللغة الفرنسية ويتلقاها الجمهور في ترجمة فورية بالعربية لتنبهر الأرض التي احتضنت لهويتها العربية المتعصبة، فهل هانت علينا أنفسنا إلى هذا الحد المريب الذي نشرح فيه قضيتنا وكياننا وشخصيتنا بالفرنسية.

ومن الجميل أن الشعب الفرنسي من أكثر شعوب الأرض غيرة على لغته وهويته حتى أن إنقاذ لغة "مولير" ما لقيته من ضعف لغوي على ألسنة الشعب الفرنسي،، تطلب الأمر تغيير فوري لمناهج اللغة الفرنسية، فأى

عبقرية هذه في أمة لا تحترم لغتها باعتبارها الأصل والمدخل عبر تاريخها وإلى بقائها الشرعي ومستقبلها في زحام تيار العولمة وبالمقابل أن يأبى المثقف الصيني لا بل ورجل أعمال الياباني إلا أن يتحدث لجمهور جزائري بالعربية أولا ثم الصينية أو اليابانية وليس باللغة الإنجليزية، تلك هي مقومات الشخصية والهوية التي جعلت من رجل يحترم نفسه ووطنه ولغته احترامه للأرض التي أقام عليها معرضا لثقافته وفكره للتعريف بإنجازات شعب عظيم وتاريخ عربي.

وإن استخدامنا للغة الإنجليزية لغة رسمية لمتلقيات علمية عالية المستوى للاستحواذ على التكنولوجيات الحديثة والإعلام فذلك أمر حتمي بعد أن تخاذلنا أمامها بعد أن لاق أسلافنا فيها رواجاً خاصة في مجال الطب أو الكيمياء بعد أن غفل عنهم المتطورون اليوم في عصر النهضة العربية والظلام الأوروبي وهذا يبرر لأننا نستورد النظريات والنتائج والأفكار لنكتفي بالاستهلاك لكل ما يتم تصديره. كما أن اللغة الإنجليزية تصبح لغة الحديث بلا منازع من باب التزايد حول قضايا المجتمع العربي أو حقوق الإنسان أو حرية التعبير أو مشكلات المجتمع الإسلامي برمته، بما فيه هموم المجتمع التركي، وهذا أمر آخر يعني بجلاء أننا أسرفنا على أنفسنا حين احتقرنا لغتنا بمجرد إرضاء الجمع الصغير من الحضور الأجنبي والذي كان بإمكاننا أن نترجم له بلغته لا أن نترجم لأنفسنا إلى لغتنا.

وهو ما يعني أيضاً مسيرة الضعف والهوان التي نعانيها على الأصعدة الثقافية حين نتباهى بلغة الآخر على حساب لغتنا التي كانت ولا تزال من أغنى لغات المعمورة وأغلاها وأبقاها تاريخها وأقدرها على التطور والتجديد ومواكبة حركة العلم والمعرفة شريطة أن نكون منتجين للعلم وضياء المعرفة.

إن البحث عن طوق النجاة في هذا العالم المتغير الذي يا ريث يرفض الكيانات الصغيرة ويبحث عن القوة والتكامل يتطلب منا كعرب وأتراك الوقوف على مختلف المشروعات ذات الإهتمام المشترك في مجال التنمية مستديمة وهي كثيرة في وقت تعرف فيها انجازات ومشاريع استثمارية في الدول العربية بالخصوص، حيث جعلت تركيا في منأى على الإنضمام إلى الإتحاد الأوروبي التي رفضت عضويتها إلى وقت قريب.

الحوار الحداثي وتنمية الوعي النقدي الشبابي:

مع بداية الألفية الثالثة حملت معها الكثير من التغيرات والتحديات والقيم مما فيها ثقافة ومستجدات العولمة الزاحفة على مستوى الوطني، الإقليمي أو حتى الدولي. ولاشك أن هناك تحولات كمية ونوعية متباعدة طالت قضايا ومجالات التربية والتكوين والثقافية والتنمية والديمقراطية.

غير أن عمق مضمون هذه المشكلات رغم اختلاف السياقات والمعطيات ما يزال متوارث الحضور بأشكال متعددة، بل أن تفاقم وتعمق واستفحال خطورة هذه المشكلات أصبح يشكل في مجتمعنا العربية تحديات كبرى صعب التخطي والمجابهة، فالعوائق والإكراهات التي ما فارقت تحد من فعالية ونجاعة وإصلاح نظامنا التربوي التكويني بكل أنماطه ومستوياته ومجالاته، خاصة ما يعيشه شبابنا من حالات سوء التكوين وما يتبعه ذلك من سوء المعاملة ثم التشرذم والإقصاء والتعنيف وضعف تكافؤ في الفرص والحظوظ والمواقع الاجتماعية، فالشباب حاملي الشهادات الجامعية والمهنية المتباعدة التي جعلتهم يعانون ويلات البطالة وغموض آفاق المستقبل المهني والمشروع الحياتي الأمر الذي لا يخلو من انعكاسات سلبية مبرحة على مستويات تمزق الهوية والمواطنة وشقاء الوعي وضعف الانتماء الوطني أو القومي لدى هؤلاء مما يلجئهم إلى الاحتجاج داخليا إلى الهجرة السرية

وركوب قوارب الموت لا بل والانخراط في متهاتات التطرف والعنف وفي مغامرات غير محسوبة أو متوقعة العواقب والمآل وذلك رغم المجهودات المبذولة لمجابهة هذه المشكلات والأوضاع التي ينبغي أن تشكل قيمة مضافة ولينة مندمجة في منظومة المشاريع المخصصة لفتح مدخلا لحوار تنموي لمعالجة قضايا التربية والثقافة والاجتماع من منطلق ومنظور رؤية فقد حوارية تكاملية متفتحة تعترف بتواضعها ومجهوداتها ويتقبلها دوما للنقد مع إمكانيات التطوير والتجاوز في المرجعيات والمقاربات والمضامين.

كما أنها تستهدف تشكيل قيمة مضافة لفهم وتقدير قيمها الفكرية والاجتماعية في إطار ربطها بسياقها الفكري والسوسيولوجي التاريخي ضمن الجهود والتوجهات القائمة وطنيا ودوليا في التأسيس الفكر سوسيولوجي وتربوي والوعي نقدي حوار حداثي وتنموي مؤصل منتج على خصوصيات الذات ومقومات الآخر وشرطيات المحظية الحضارية الراهنة البالغة الحساسية والدقة والتعقيد.

الحوار التواصلي الشبابي وجدلية الموروث والمستحدث:

تظل مصادر التغيير نحو الأحسن قومية أو وطنية تنبع من عمق الوطن وتنتهي إليه تطورا وتحديثا وابتكارا وتجديدا وهو منطوق التنمية البشرية التي لا بد - أن تنهض على أسس قوية، وذلك بوجود التفوق والتميز حتى تستعيد الأمة العربية لا بل الأمة الإسلامية العربية التركية مشاهد من ماضيها المشرق ودون مزايده. فعملية التأسيس لمزاوجة هادئة بين الموروث والمستحدث مع استحداث تواصل الحوار بينهما حتى يتم تجاوز العقبات بشكل منهجي وأكثر دقة، يبدأ من تحصين الشباب من خلال تجديد الخطاب الشبابي متعدد الأبعاد تنمية لروح الانتماء بواسطة الخطاب التاريخي العصري المتجدد دون تردد أو موجات الرفض.

غير أن مصادر التغيير من قبول التأثير والتأثر لتوفير ضمانات التلاقي والتفاعل والتثقف بغية استيعابها وفهمها، لن تتم إلا بمزاوجة هادئة بين التوريث والمتغير دون قبول إسقاط الآخر من الذاكرة، فلهوروث قيمته واحترامه وتقديره وللجديد أيضا ضرورته ومنزلته وله دور في نهوض الأمر والشعوب من كبوتها التي تبدد مؤقتة في معظم الأحوال ولاسيما لدى أمتنا الإسلامية ذات التاريخ والعراقة.

إن أهمية مواجهة التلوث الفكري والوحيد في المرسل إلى شباب الأمة العربية الإسلامية عبر الفضائيات يستدعي الإعداد للمواجهة بتأمين ثقافات قومية رهينة تأخذ في الاعتبار طبيعة التناهي والصعود الفكري قبل أي اعتبار آخر لتظل المقاصد العليا صامته لعدم التهوين من خطر العطاء الإعلامي المغرض مما قد يضعف تكوين شباب الأمة في الاتجاه الصحيح لحفظ الوطنية ومركزاتها الرئيسية. فالحاجة تبدو ملحة إلى صناعة هذا التغيير بإلحاح وواقعية حتى من خلال استغلال المساحات الممكنة للتغيير عن الحق وكشف جوانب الباطل وابتعاده دون تخوف من أهوال ضرر أو قلق لاحق.

فن واجب الأمة الإسلامية أن تستدعي تاريخها لتؤكد من وحدة مصيرها الذي ينطلق أساسا من وحدة الأصول واللغة والإدراك لطبيعة التوحد الفكري والوجداني وقضية المصير وقضايا المستقبل بكل مشاهد التغيير والتي عادة ما تنطلق عن أصالة واقتدار لاسيما إذا كانت توجهات الواقع تشير إلى إعادة التأسيس لصناعة مشروع قومي ضمنا لسلامة التعامل مع الحدث العصري لتسترجع علو المكانة على النحو الذي تتمتع به حركة التاريخ وحقبته المتلاحقة انطلاقا من احترام عطاءاته الكبرى وتعزيزا لحقه في الحياة على النحو الذي طالما قدمه للعالم العربي في عصور ظلامه.

التغيير الثقافي آلية للوجود الفكري الإنساني:

لقد عرفت مناهج التغيير والتحول والتطوير بشكل مرحلي متجدد عبر حضارات إسلامية متلاحقة، على الرغم من التحديات التي واجهتها وانتصرت عليها، وتجاوزتها في كثير من حقبة التاريخ. ولأنها كانت كذلك، فقد بدت قادرة على تحقيق عدد من المتجزات المهمة التي يجب ألا تنسى أو تُتجاهل في زخم الأحداث. فلقد امتلكت من المرونة والرحابة والعمق والاتساع، ما جعلها قبلة لكثير من الأمم، فأدركت أنها حضارة الحياة وثقافة الوجود وفكر المستقبل، ذلك أنها بدت ثقافة بعث الحياة كما امتلكت من الانفتاح الذهني والوجداني، ما قرب المسافات وافسح المجال لكل علماء الأرض عبر أنحاء المعمورة، لأن تكون لهم بمثابة إسهامات ومشاركات حادة في تأصيل فروع الثقافة وتعميق معطياتها، من خلال فتح نوافذها أمام حركة الترجمة من فكر لآخر وإليه، فحققت بذلك صورا من الإنجاز ما عجزت عنه الإنسانية جمعاء .

كما اعتبرت بمثابة ثقافة إنصاف للآخر، فلم تبخل عليه بالمشاركة فيها بكل أدواته، وإسهاماته، وآلياته. وقد زادها ذلك ثراء وعمقا فجعلها ثقافة جذابة لا طاردة وبدت ثقافة مشوقة لا منفردة. ولم تعرف الثقافة العربية الإسلامية من الفوضى بقدر ما طرحته من صور التنمية البشرية للإنسان، بغض النظر عن تنافر الأجناس أو تعدد الأديان أو صناعة المذاهب، ففتحت ذراعيها لتضارب الأفكار واعتبرت بذلك ثقافة التعددية بامتياز والتنوع بلا مثيل، التي لا يجمعها إلا وحدة النوع الإنساني.

كما بدت ثقافة الحرية التي لا يحجبها إلا التجاوز في امتحان حرية الآخر أو العدوان على حقوقه وأدميته. ومن هنا، فإن الثقافة العربية الإسلامية بدت بكل هذه الملامح وتلك القسّمات في حاجة إلى عدة

اعتبارات، اعتبار الإنصاف لأرصدة التاريخ المشترك العربي العثماني على سبيل المثال لا الحصر، وكان لها من الأثر في محاور الأخذ والعطاء على السواء، مع الاعتراف بدورها البناء الذي أعطى قيادة السلطة للآخر، فأضاف وجدد وابتكر حين هيأت له ركن حياة ما تمتع به من الاستقرار وفرص التنمية، في الوقت الذي انشغل فيه أهلها بمقاومة المحتل والخلاص من تداعيات العدوان، وبات عليهم في ظلال حركات التحرر وبعدها أن يتجاوزوا حدة النظرة الماضوية، وأن يتجهوا إلى رؤية المستقبل بما يمتلكون من الأصالة والتاريخ، وما يشجعهم على تجاوز المنعطف بكل مشقاته، وتوظيف المتحول إلى حيث يريدون، دون مساس بالثوابت أو اجترأ على الهوية أو إهدار للكيانات القومية .

نحو رؤية مستقبلية لثقافة حوارية

تحتاج النظرة المستقبلية في حوار الثقافات إلى الدعوة المفتوحة أمام صيغ الفكر وصوره، إلى محاولة البحث عن القاعدة المشتركة على المستوى الإنساني، لاتخاذها مدخلا لتخطي الخلافات والصراعات المزعومة، لتحقيق أهداف وغايات مرسومة وموجهة. فالصحيح في صياغة برامج المستقبل، أن يبدأ من احترام القيم الإسلامية التي بثها الإسلام بين مشارق الأرض ومغاربها، حتى صارت الغلبة لفكره عبر حركتي التعريب والتعرب حين عزز قيم الإنسانية الإيجابية، مع الاستفادة من كل دروس التفاعل مع الآخر، دون قهر له بقدر ما هو ممكن من صناعة الجسر الثقافي، الذي يسهم في تأكيد الثقاف والتواصل، ويؤكد وجود مساحة من تلاقي عقول الشرق والغرب بأمانة وموضوعية تضمن دعم وتأسيس قيم الحق والجمال والعدل والمساواة والتآخي بين كل ثقافات بني الإنسان.

إن النظرة لتجدد أسس الحوار بين الشباب الجزائري والتركي وتقريب الفوارق بين الشمال والجنوب، تحت مظلة دراسة المشترك المجتمعي، حين يحترم الهوية ويعظم منظومة القيم ويضمن للثقافات الخاصة حقوقها في البقاء، مع احترام المشاركة في ملتقى الثقافات لوضع التصورات في أطرها الإنسانية العامة، وتحديد الآليات والبرامج التي لا ينفرد نمط بعينه بطرحها في غير شراكة الآخرين. ومن هنا يلتزم كل طرف عربي وتركي، التحلي بالموضوعية وإعمال العقل المتفتح في استيعاب انجازات الآخر وتبادل المصالح معه، وحتى صناعة لمصالحه من خلاله، إن كان ذلك ممكنا من خلال تفاعل المصالح المشتركة ضمن آليات التنمية المستدامة.

إن حقيقة الدور الريادي للجزائر في صناعة ذلك المشترك بحكم طبيعة الموقع والتاريخ وبحكم قدرتها على التحدث مع الغرب بلغة واضحة، مما يستوجب إعدادا إعلاميا تركيا عربيا مشتركا، كما كان حاله على مدار حقب التاريخ من خلال الدولة العثمانية العريقة. فيتم بذلك تقارب الرؤى وتجانس الأفكار من ناحية، وعلم أصول لغوية وعقلية ومصيرية، حيث كانت الحضارة الإسلامية منذ فتحت نوافذها على العالم لتراه من رؤية كلية متجانسة، من قبل تحقيق التعارف بين الشعوب العربية والتركية التوافقية لحضارة العلم وثقافة القراءة والتفكير والتدبر، وهي حضارة التلاقي والجدل بالحنس، وهي ثقافة احترام الشعور الإنساني، لا سيما حين يحترم الدين الحنيف كل الكتب والرسالات السماوية.

لقد تعددت صيغ التلاقي عبر حضارات الشرق القديم وحوض المتوسط وامتدت الصيغ إلى إفريقيا المسلمة وكان في ساحات الاتساع ما قرب بين الدولة العثمانية والشرق الأوسط العربي بالخصوص، حيث تحققت يومئذ القيم المشتركة العليا بين الأجناس والأديان، الأمر الذي يدعو

شجاعة المراجعة وخلق جسر المنطقية للتاريخ من هذا المنظور الانساني
المفتوح .

الخاتمة:

إن الاندفاع المنهجي نحو رؤية المستقبل يبدأ من وضوح الرؤية
وتجدد قراءة المشترك الثقافي العربي التركي في بعده الإنساني الرفيع، بين
القبول والتأثير والتأثر، وبين محاور الأخذ والعطاء، إلى التزام الانفتاح
الذهني، مع التركيز على أعمال العقل والفكر في صوره الإنسانية الرحبة، التي
تتطلب من خلال الحياد والموضوعية في طرح قضايا الأمة. كما أنها تعتمد على
صحة النتائج وعدم تزيف حقائق التاريخ من خلال تفسيراته.

إن التعامل بهذه المقاييس من شأنه أن يكون ضامنا لصحة مسار
الأمة من خلال قياداتها الفكرية الواعية بعيدا عن التخبط والارتجال، حتى
تنجز بناء مستقبل أفضل. إن الاعتماد على الشفافية في قراءة معطيات الواقع
دون انحياز، وإعادة النظر في منظومة تاريخ الأمة، لا بوصفها مجرد ماض
تفتخر به، ولكن باعتبارها عاملا مؤسسا لإيجابيات الواقع وآليات المستقبل
وبناء الثقة بالذات الشبابية بالخصوص، ذلك أن التواصل الزمني يمثل جزءا
لا يكاد يتجزأ من التواصل الإنساني في كل صوره وإشكالاته ومستوياته
وأنماطه. وإن الإصرار على رؤية المستقبل من منظور علمي عربي تركي
رحب إسلامي أكثر جاذبية مما يقتضيه ديننا الحنيف، فالتاريخ ليس ملكا
لأحد والأصول لا تذهب سدى إذا ما حدث التلاقي والتواصل.

إن بناء مشروع عربي تركي نهضوي، تكون مركاته الكبرى هي
الثقافة والأصول الثابتة دون تفريط أو التهاوي، باعتبارها تراثا إنسانيا أبعاده
وآثاره وضوابطه تحقق التوحد الاقتصادي والتكامل المعرفي أساسه حرية

الفكر وتشجيع التميز والتفوق والابتكار، لا بل والأخذ بآليات المعرفة المعاصرة .

الهوامش

1. مصطفى محسن، الشباب وإشكاليات الاندماج الاجتماعي، مقارنة سوسيولوجية، دراسة ضمن إصدار جماعي، الشباب ومشكلات الاندماج، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 1995، 49، ص ص، (23-44).
2. مصطفى محسن، الخطاب الإصلاحي التربوي بين أسئلة الازمة وتحديات التحول الحضاري، رؤية سوسيولوجية نقدية، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، بيروت، ط1 1999.
3. مصطفى محسن، التربية والتحول في عصر العولمة، مداخل للنقد والاستشراف، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2005
4. محمد عبد الباقي الهرماسي، المجتمع والدولة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1978
5. لويس لوغران، السياسات التربوية، ترجمة تمام الساحلي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1990